محاولة بائسة

آمال عماد

ما إن تغير لون الإشارة ولوَّح عسكري المرور حتى انطلقت السيارات مسرعة مفزعة وكأن قطار الموت يلحق بهم. وقفت آنذاك غير عابئ بما حولي من أبواق السيارات ولا إهانات سائقي الميكروباصات. ظللت صامتا لا يُحَرِّكَ لي ساكن. شعرت بأني وحيد وقد خلت الشوارع والميادين من السابلة والكلاب الضالة. أفقت من شرودي على طَرْقٌ خفيف لزجاج السيارة وإذ بطفلة تتوسل:

-»خد منّي والنبي يا بيه»

ومدت يدها بعلبة مناديل صغيرة. أشحتها بلطف ومددت يدي ببضع جنيهات ولكنها رفضت:

-»أنا ما بشحتش يا بيه، هتاخد مناديل؟! هاخد حقها. مش عايز بلاش!»

أعجبت بعزة نفسها التي لا أقوى أنا على الشعور بها، فأخذت كل ما معها من مخزون ونقدتها ما يزيد عن ثمن علب المناديل جميعها.

انطلقت بسيارتي إلى ميدان التحرير وقد جاوزت الساعة ١٢ صباحا بقليل. صففت السيارة وأخذت أجوب الطرقات كمن لا صاحب له ولا عنوان. حتى عرجت إلى إحدى البارات القديمة القابعة بوسط البلد منذ ستينات القرن الماضي. جلست على إحدى الطاولات بجانب نافذة مطلة على شارع رئيسي وطلبت من النادل زجاجة بيرة وسجائر. كانت تلك

المرة الأولى لي في بار وشرب الكحول أيضاً.

فأنا الولد الوحيد لأمي. وهبت حياتها لأخذ قراراتي وتنظيم حياتي وتلبية رغباتي. كانت شديدة التحفظ متمسكة بعادات وتقاليد اندثرت ودفنت مع أجدادي منذ سنين. كنت طفل خجول خائف من المجهول والمعروف أيضاً. نظرة من أمي كانت كفيلة لتبقيني أيام وليال لا أقوى على النوم ولا يلامس عيني النعاس. شَبَبْت شخص ضعيف ساذج حالم، أتوق إلى يوم زفافي وميلاد أول حفيد لأمي. إلى أن دهسني قطار الحياة ذهاباً وإياباً وغشيني ظلام الواقع واذاقني من المر علقم. أفقت من دهشتي لهذا العالم البائس على شعور بالعدمية واللامبالاة يكسو سنين عمري سواداً.

أحسست لوهلة بأني مراقب، أخذت أتأمل وجوه الجالسين حتى وجدتها، تطالعني بشغف قارئ ممسك بكتاب أضاع عمراً بحثاً عنه.

أشحت بوجهي بعيداً لتعتقد أني غير آبه لنظراتها. ثم سمعت وقع أقدام باتجاه طاولتي. لم ألتفت. أخذت تحدق فيّ بضع لحظات ثم استطردت سائلة:

-»ممكن اقعد؟»

أجابتها دون النظر إليها:

-»اتفضلي».

جلست بجانبي وأشعلت سيجارة استعارتها دون إذن من علبتي ثم طلبت كأس نبيذ أحمر صادحة:

- «على حساب البيه».

لم أعلق. شعرت بيدها تعتصر فخذي الأيمن.أحسست بسخونة تسري في جسدي. فأصابني شبق ورعشة اعتقدت أني نسيتها منذ أمد.

أحسست بأناملها تمتد لأعلى رِجليِ فأزحت يدها بهدوء قائلاً:

-»معلش مش فالمود انهارده»

ردت بصوت خفيض:

-»واللي يظبطهولك؟»

أصررت على موقفي حتى أيْقَنَتْ أن كل محاولاتها ستبوء بفشل محتوم. عقدت حاجبيها ورمقتني بنظرة امتعاض كأن باغتتها حالة قئ مفاجئ ثم تركت الطاولة قائلة:

-»شكرا على الكاس!»

أشعلت سيجارة تلو الأخرى وأنا أتسائل متى آخرة مرة لامست فيها إمرأة. أدركت أن ستة أشهر قد مضت على هذه الليلة. كانت من أسعد لحظاتي مع «ليلى»، كنا للتو أتممنا عامنا الخامس ولم تحاول يومها أن تحدثني عن الزواج كعادة كل عام. بل كانت جميلة بضة، تشتعل وجنتيها احمراراً وتلمع عينيها رغبة. ما أن أفرغ من مضاجعتها حتى تنهال على رقبتي بقبلات حارة وتلتهم شفتي نهماً وتحاوطني بجسدها شوقاً فنعيد الكرة من جديد. في كل مرة كنت أعشقها أكثر وكنت أشعر بحرية وقوة لم اعهدها من قبل. لم أرى في حياتي أجمل من «ليلى» أو هكذا خيل إلي. اتخذت من عشقها محراباً ومن أحاديثها صلوات وفي

وجودها إبتهلت تضرعاً وخشوعاً. لو أن نساء العالم اجتمعن ليغوينني ما التفت لامرأة مهما بزغ جمالها.

حينما استيقظت صباح اليوم التالي، أراعني رحيل «ليلى» بلا وداع ولا تفسير. لم تخلف وراءها سوى صمت مدوي؛ ذلك الصمت الذي يكشف لك وحشة وحدتك وبرودة عالمك وفقر روحك. رُحت استرجع كل كلمة وحديث ونقاش، عللي أجد ما يخمد حيرتي ويضمد جراح قلبي. آخر ما بيننا من جدال كان عن زواجنا فنحن نعيش في مجتمع « منغلق» ولا يصح خمس سنوات بلا «دبلة». واحتد النقاش واشتعل عند ذكر ضيق الحال وقلة الأموال. فكيف بمهندس اتصالات مرموق يعمل بإحدى الشركات الكبرى في نفس المجال، وينتهي به الحال إلى كم ديون وهموم وساعات عمل لا تنتهي؟

تبدّت لي حقيقتي الآن كطفل مشوه أبت الحياة إلا أن تقذف به لهذا العالم الموحش ليتجرع من العذاب مَراراً ومهانة. كنت دوما أشبه حالي بالعاهرة تتلقفني أحضان الشركات لينتزعن أوراق «زهرة شبابي».

فتنهرني «ليلى» صائحة:

-»إنت راجل! عيب تقول على نفسك كده!»

رجل...تلك الصفة المطبوعة على بطاقة هي فراق بيني وبين المومس. أتذكر أول مقابلة أتممتها في ذلك المكان عندما اقتحم الغرفة ودون اكتراث قال:

-» سمعت feedback كويس عنك من الشباب. ان شاءالله خير.Nice to meet you“

ثم خرج السيد "عمر فراويلة" دون عبئ النظر اليّ أو التحقق من مدى كفائتي.

كان له صوت زاعق وحضور جاثم للأنفاس يعكس كل ما تتمثل فيه تلك الشركات من عبودية وقبائح ودهس النفس والكرامة. دائما ما يرافقانه في جوالاته حول ممرات إلادارات كلاً من "ممدوح عبد المجيد" و"اصطفانوس نسيم" . "ممدوح" كان شخص طيب النفس كثير التبسم. ينم هدوئه عن توتر مكظوم وقلق مشحون. أرنو لإرشاده وتوجيهاته وكثيرا ما يجيرني من عذابات ما أحمل من مهامٍ عُسْر. أما "اصطفانوس" فهو ذو وجه مكتنز وكرش متدلٍ ورأس ناصعة الصليعة؛ أقبح ابتسامته اصفرها. يضمر شُحُّ نفسٍ وخبث تَجَلّى في دعاباته اللزجة ولمزاته لمرؤوسيه من الرجال طبعا. أما النساء - وما أكثرهم في فريقه - فكان لهم وضع خاص ومحط تقدير بلا داعٍ أو تبرير.

ثالوث المدراء ذاك كفيل بإن يسند إليك مهام وأعمال لو قضيت دهراً ما فُنِيَتْ. وإن كرست أيامك ولياليك وعمرك وأنجزت عملٍ ما، تمخض لسان السيد "فراويلة" لينجب:

- "good job»

أو

-" مية مية. اللي بعده"

كل شكواي من ضيق الوقت واستحالة العيش كانت تجاب بجملة واحدة:

" إيهاب لمعي قال ماتروحوش إلا لما الشغل يخلص"

بغيض ذلك "اللمعي"، مقيت. يتبع دين التسلق ويمتهن التَزَلُّفَ حرفة. تأتي أهوائه على الحط من قدر مَن حوله وإمعانه في إذلالهم وتهميش وجودهم ودكِّ أعناقهم. أسمع أقاويل تصف مدى قوة ذلك الرجل وعنفه. فبرغم ذلك، كل ما أُجِيشُ من مشاعر تعاطف تلوذ فرارا لذكر أسمائهم؛ فكما أنتم يُولّى عليكم.

أُضِيعَتْ حبيبتي ودُفِنَتْ أمي وسُفِكَتْ صحتي وأنا لازلت لم أقوى على قدر يسير من مهام يوفر لي تقديرا أوتمييزا. فقط تلك الكلمات الصماء ذات خواء المحتوى وفراغ المضمون. كتلك التي يقولها المغتصب بعد أن يجهز على فريسته، فينهل من ريقها وينهش من روحها ويسجيها جثة مهترئة. لن يرغب بها غيره. ولن تهوى وصال العيش مهما أفاض من الوقت بقية.

إلتَفَتُّ عن يميني فوجدته واجم الوجه مطئطئ الرأس وأشيب الشعر. حاولت أن أعينه فلم أقوى. ناديته فلم يسمع. ناجيته فلم يخشع. أمعنت النظر لأستذكر له اسم أو عنوان. فَزِعْت. وجدته انعكاسي في مرآة مشروخ، بطول ضلفة باب البار وعرضها. خرجت مسرعا أهرب مما فطنته وتيقنت من وجوده؛ فالنهاية معلومة والأقلام مرفوعة أما الصحف... مقطوعة.